فاعلية الشَّخصيات ووظائفها السردية في ثلاثية " أرضُ السَّواد " لعبد الرّحمن مُنِيف

د.عبد الغني بن الشيخ
جامعة محمد بوضياف – المسيلة

الملخص:

تتحدّد وظيفة الشّخصية الروائية من خلال علاقاتها بالشخصيات الأخرى في عالم الرواية الذي يجمعها، مما يعطي تعددية في الأصوات و الأفعال، وذلك يتيح لقارئ الرواية الحصول على أكبر قدر من المعلومات كما يساعده في بناء قصته الخاصة به وإعادة بناء العالم التخييلي للرواية ، من هذا المنطلق، يسعى هذا المقال لعرض وتحليل مختلف الوظائف السردية وأدوار الشخصيات في ثلاثية أرض السواد لعبد الرحمن منيف.

Résumé :

La fonction du personnage romanesque se définit par ses relations avec les autres personnages du même univers *fictionnel qui les englobe, ce qui donne une pluralité des voix ainsi* une pluralité *d'*actions, cela va permettre au lecteur du roman d'avoir un *maximum d'*informations *sur l'ensemble des* personnages et l'aider également *à construire sa propre histoire ou de* reconstituer l'univers fictionnel du roman.

C'est à partir de cela que le présent article *vise à présenter et analyser les différentes fonctions narratives et rôles des personnages dans le roman Ardh as-sawad de Abderrahmane Mounif.*

مدخل:

إن ما يفسّر زخم الأحداث التي يتمّ سردها في ثلاثية "أرض السَّواد" هو حجم الرواية الكبير من جهة ثمّ العدد الهائل من الشّخصيات التي يصعب حصرها، وتسجيل جزئيات أفعالها،وبتعددها فقد تعدّدت وظائفها وأدوارها السردية،غير أنّ بروز عدد هائل

من الأسماء،لا يعني بالضرورة أنّ جميع تلك الشّخصيات متكافئة، من حيث الفاعلية، ودرجة الحضور، والتّفاعل مع الأحداث.

كون بعض الشّخصيات – التي تنتمي إلى العالم التخييلي لهذه الرواية – لها حضورٌ فاعل ومؤثر (داود باشا وحاشيته) ويقابله (القنصل ريتش ومعاونوه) في حين أن بعضها الآخر أوجدته علاقاته بالشخصيات المحورية الفاعلة فحسب،إنْ بشكلٍ مباشر أو غير مباشر،أو لوجود علاقة لتلك الشخصيات بالأحداث التي جرت، ومعظم تلك الشّخصيات هي شخصيات "محلّة الشيخ صندل" أما الفئة الثالثة من الشّخصيات فهي شخصيات عابرة، لها وظائف سردية مُعيّنة،كتلك التي يتمّ التعرض إليها،أو ذكر أسمائها بشكل خاطف،في موقف معيّن تقتضيه ضرورة سردية ما.

وحتى فيما يخصّ الشّخصيات الفاعلة فإنّ بعضها مرهون بوجود البعض الآخر،كالشّخصيات المحيطة بداود باشا وتلك المحيطة بالقنصل البريطاني، حيث يتجلى الصراع القائم بين هاتين الشخصيتين صراعا بين سلطتين أو دولتين، فإذا عُزِل الوالي – مثلا– تغيّرت الحاشية وتغيّر المحيط بأكمله.

ووفق ذلك يمكن وضع تصنيف للشخصيات حسب التوزيع التالي:

أ– **الشَّخصيات المحورية الفاعلة:**

• داود باشا: وهي الشخصية المحورية الأكثر حضورا وفاعلية – على الإطلاق – في الثلاثية، تدخل بشكل أو آخر في علاقات متشابكة مع العديد من الشخصيات الفاعلة وغير الفاعلة، بين من يُكِنّ لها الولاء، ومن يكنّ لها الخصومة والعداء، كما يمكن اعتبارها نموذجا للشّخصية الموهوبة الجانب ،إذا أخذنا بتصنيف حسن بحراوي للشخصيات ، ويُقصَد بالشخصية الموهوبة الجانب تلك" الشخصية التي تتصرف من موقع ما، وتعطي لنفسها حق التدخّل في تقرير مصير الفرد، أو الأفراد الذين تطالهم سلطتها "(1)

أما عن مصادر المعلومات التي يتمّ من خلالها التعرّف على هذه الشخصية فهي متعدّدة، منها ما يخبر به الراوي، ومنها ما تخبر به الشخصيات الأخرى، و ما نعرفه

من الشخصية ذاتها، بواسطة الحوار الذي تجريه مع الشخصيات التي تتعامل معها، أو من خلال الحوار الذاتي (Monologue) والتذكر.

وهو ما يُشكّل في النهاية سيرة ذاتية عن هذه الشّخصية، وإن كان توزيع المعلومات التي تخص هذه السيرة لا يخضع في الرواية لمنطق التتابع الزمني، على مستوى زمنيّة الخطاب، وإنما نعثر على تلك المعلومات متفرّقة في ثنايا النص، وعلى القارئ أن يتكفّل بعملية جمعها، وإعادة تنظيمها وفق منطق زمني خطيّ، يتسنىّ له من خلاله تتبع سيرة داود، بداية من مرحلة طفولته إلى أن يصبح واليًا لبغداد .

ولأن هذه الشخصية هي الشخصية المحورية الأساسية، فقد خُصت بالعناية الكاملة من حيث كمِّ المعلومات التي تخص سيرتها، ومن حيث وصف عالمها النفسي الداخلي، بينما لا يوجد أيّ اهتمام يُذكر بمظهرها الخارجي ، مما يدل على أنّ سلطة الوظيفة التي تؤديها هذه الشخصية هي أهمّ من مظهرها الخارجي.

وتقصّي تلك المعلومات –في متن الرواية– من شأنه أن يقدم لنا سيرة مفصلة عن تكَوُّن تلك الشخصية الموهوبة الجانب ،منذ أن كان داود طفلا وحتى صار واليا لبغداد، فنعرِف من خلال حوار بعض الشخصيات كيف " جيء بداود طفلاً صغيرا وبِيع في بغداد، وكيف أنّ سليمان الكبير اشتراه، واعتنى به وهذّبه إلى أن كَبُر، فوثق به وقرّبه، و كدليل على تقريبه زوّجه ابنته"(2)

فمثل هذه المعلومة تكشف لنا من جهة عن طفولة شقيّة محرومة، إذ بيع داود مثلما يباع أيّ شيء في السّوق، لكنه من جهة أخرى كان محظوظا، فقد اعتنى به الوالي سليمان الكبير وقرّبه منه ،بل ولقد أخذ عن هذا الأخير دروسا كثيرة ومن " الدروس التي تعلّمها داود وهو في سراي سليمان باشا الكبير: « اجعل كل إنسان محتاجا إليك، وأنت لا تحتاج ولا تعتمد على أحد بشكل كلّي أو بصورة دائمة » " (3) وغيرها من الدروس.

ونعرف من خلال تداعيات خصمه اللّدود سيد عليوي – وهو يخطط للإنتقام منه– أنّ داود قبل وفاة سليمان،كان زاهدا في أمور السياسية وشؤونها إذ ذهب " إلى البصرة عازفا عن أيَّة مشاركة بالسلطة، منصرفا إلى الدراسة.ثم لما عاد إلى بغداد،تحوّل إلى مجاورٍ لسيدي عبد القادر، وتغيّر بملابسه وطعامه وسلوكه،أصبح واحدا من رجال

الدين، لكن حين شعر أنّ ساعته قد جاءت ترك المقام وهجر الدفاتر وعاد كما كان أيام سليمان الكبير :لا يفكر إلاّ بالسياسة، ولا يعرف غير القوة لتنفيذ ما يريد! "(4)

كما نعرف من خلال ما يخبر به الراوي أنّه " إذا كان قد عُرِف عن الباشا طول الباع في أمور الدين،إضافة إلى التّقى والورع، فقد فاجأ الكثيرين في ليالي الشعر بما كان يحفظه من الشواهد الهامة ، وما يماثلها بالفارسية والتركية " (5)

يُضاف إلى كل ذلك أنّ داود " بدأ عسكريا منذ نعومة أظفاره، واكتسب الكثير من الخبرة في رحلته الحافلة،سواء بالمعارك التي خاضها، أو بالمدة الطويلة التي قضاها في السراي "(6) و تلك مؤهلات كانت كافية لأن تجعل منه قائدا موهوب الجانب، ثم واليًا رزينا متحكمّا، يحتذي في تسييره لشؤون الولاية بما تعلّمه من دروس عن معلمه سليمان الكبير.

وهو بعد أن أصبح واليًا، فقد تغيّر وضعه، وبات ينبغي أن يتغير هو نفسه،وكذلك الذين يحيطون به ،كما يخبرنا الراوي في مقطع من المقاطع السردية " لأنّه الوالي الآن، يجب أن يكون مختلفا عن السابق ،بالسلوك، بالتّصرف، ومتى يجب أن يتكلم ومتى عليه أن يصمت.لقد انتهى دور التعبئة والتحريض، وحسمت معركة الكلام منذ اللّحظة التي دخل فيها بغداد...حتىّ الأصدقاء الذين تعودوا عليه قبل أن يصبح واليًا، يجب أن يتعودوا عليه بعد أن صاره ، معنى ذلك أن يتغيّروا عن السابق، لأنه هو ذاته تغيّر، لم يعد داود المُطارَد أو الهائم في الجبال، إنه الآن الباشا، والمنصب ذاته يفرض طريقة جديدة في التعامل(7)

كما أنَّ على خصمه القنصل البريطاني "ريتش " أن يعيد النظر في سياسته و " أن يعيد ترتيب علاقاته،وأن يختبر تحالفاته، لأنه الآن بمواجهة والٍ من نمط مختلف"(8) لا يرضخ للضغوط بسهولة.

فهو يجد بأنّ داود ذلك " الجورجي بمقدار ما يبدو طيّبا وبسيطا فهو شديد الخطر، تماما كالمياه الساكنة، إذ لا يُدرك عمقها، ولا يُعرف ماذا تخبئ في باطنها"(9)

وإذا كان أعداؤه يرون فيه شخصا ماكرا عنيدا فإنّ المقربين منه، والذين يعرفون جانبا من حياته الخاصة،في تعامله مع أبنائه وحاشيته،فهم يرون فيه جانبا خفيا لا يراه

غيرهم ، ومنهم نائلة خاتون مربية ابنته،إذ يبدو لها أنَّ " لداود قلبا يحتمل الجميع، وأنه أبٌ ليس لأولاده وحدهم ،بل ولأولاد الولاية كلها ، وتتأكد أكثر حين تراه كل صباح وهو يتفقد الأشجار والخيول وأقفاص الطيور" (10) ويصدق ذلك عندها حتى في" اللّحظات التي كانت تميل فيها إلى إدانة داود، لأنه،كما سمعت، قتَل هنا وهناك ، وساق الجنود في هذا الاتجاه أو ذاك ليموتوا "(11)

أمّا "ما كان يشغل داود باشا، وقد لاحت الفرصة بعد طول انتظار، دولة لم تقم مثلها منذ أقدم العصو، ولعل أول شيء ينبغي توفره: أسرة كبيرة شديدة الترابط، لا يستطيع أن ينفذ إليها أحد من الغرباء.حتىّ البنات يجب أن يُختار لهن أزواجا من الأقوياء"(12)

فلم يكن داود مثله مثل الولاة السابقين، كان هاجسه الأكبر إجراء تغيير كبير،لبناء دولة قوية لا يطالها الأعداء، فكانت المواجهة عنيفة بينه وبين من يطمح للسلطة ،كسيد عليوي الذي كان مرافقه،ليتحوّل إلى خصمه بعد انتصاره في معركة الفرات الأعلى،ومواجهة أخرى ضد من يطمع في ثروات الدولة كالقنصل البريطاني،ثم مواجهة البدو بقيادة شيوخ القبائل المتمرّدة .

وحتىّ هواياته كانت مكمِّلة لمظهر شخصيته الموهوبة فقد"كان الصيد لداود باشا إحدى الوسائل لترويض عواطفه،وهذه الهواية التي استبدت به منذ وقت مبكر،كانت تتيح له المجال كي يجعل الحقد يفيض إلى الخارج،من خلال اكتشافِ ومعرفة المخلوقات الأخرى،والتي لها أمزجة وطُرق في الدفاع عن النفس،وأساليب متعدّدة للتمويه تختلف عنه"(13)

أما عن المعلومات التي نجمعها بخصوص الهيئة الجسمانية لشخصية لداود – ورغم الحضور المكثَّف – فإنها لا تكاد تعطينا صورة محدّدة عن هذه الشخصية،ماعدا بعض الملامح العامة التي يمكن التقاطها متفرقة من هنا وهناك في سياق سرد الأحداث– وهي قليلة – كهذه " وكان يروق لها أكثر ما يكون أن تعبث بلحيته والشوارب " (14) أو من خلال وصف جزئي عابر" ورقبته تختلف عن رقبة سعيد: رقبة سعيد

ثخينة، مليئة بالشحم والقوة والشباب ، أما رقبة داود فإنها أشبه برقبة اللقلق: طويلة، مخشبة " (15)

- سيد عليوي (الآغا) :

تندرج هذه الشخصية ضمن الشخصيات الفاعلة في " أرض السواد " ولها وظيفة مهمة في تغيير مسار الأحداث وتطويرها،وهي تبدو بمظهر الشّخصية العسكرية العنيفة ،في سلوكها وأفعالها، والتي لا تتوانى في الانتقام من خصومها بأبشع الطرق الممكنة، عن طريق التّصفية الجسدية والتّنكيل ،يكون مصحوبا بمشاعر الزهو والتلّذذ .

كما أنها على استعداد دائم لتنفيذ فعل انتقامي جديد، ضد خصومها، أمّا المعنيون بذلك،فهم بالدرجة الأولى رؤساؤها،ومن يملكون عليها سلطة، فتبدأ الشخصية في التخطيط والتآمر، بل وتتلذذ باستحضار وتخيّل مشاهد القتل، في أبشع الصور" وللحظات بدا يتصوّر أنّ رأس داود يتدحرج بين الأقدام ، وقد انغلقت إحدى عينيه ، أما الأخرى فتبدو منطفئة ، وكأنها قطعة زجاج استخرجت للتو من أعماق التراب(16)

و مشاعر النرجسية المفرطة – تلك– هي التي قادت سيد عليوي إلى حتفه ،فقد كان واثقا كل الثقة من قدرته وتمكنه ، يقف قبالة المرآة في وضع صارم ،مخاطبا نفسه " أنتَ البداية والمنتهى، أنتَ الأمل والمرتجى، يا من يُعيّن الولاة ، ويهب الموت والحياة،أنتَ الذي بسيفه تُشق الطريق إلى بغداد، و سمّى داود واليا على العباد، أنتَ الذي دخلت القلعة مثل أسد الجبال، ولم يجرؤ أحد على الوقوف أو النزال، وأنتَ الذي قلت: عهد جديد لا مكان فيه لحمادي وسعيد " (17)

بل لقد راحت تلك النرجسية تتفاقم إلى حد لا يمكن وصفه، بعد أن استولى على القلعة و" حزّ رأس سعيد وقدّمه هدية إلى الباشا،أما بعد معارك الفرات الأعلى ، فلم تعد الأرض تحمله،أصبح مغرورا مثل طاووس،وأصبح يقول،دون كلمات : أنا ربكم الأعلى ويا ويل من يقف في وجهه " (18) كما تصفه إحدى الشخصيات.

ولم يكن ليحقّق مُراده في القضاء على داود، و الإستيلاء على السلطة بدله، رغم كل ما كان يخطط له بالتواطؤ مع القنصل، إذْ تفطّن الوالي لأمره فاستدرجه إلى بغداد،

وتمّت محاكمته بتهمة الخيانة الكبرى، وإدانته وعند ذاك " أصدرت المحكمة حكمها بإعدام الخائن سيد عليوي" (19)

- بدري صالح العلو:

تمثل هذه الشخصية الخيط الذي يربط السراي بمحلة الشيخ صندل، فهو الممثل الوحيد لأهل هذه المحلة، كرمز من رموز السلطة في ولاية بغداد، بوصفه عسكريا ترقى ليصبح مرافقا للوالي داود باشا ، إلا أنه على خلاف سيد عليوي لم يكن ممن يطمح إلى الزعامة أو تولي الولاية ، لذا كان مقرّبا من الباشا، الذي كان يُعِدّه لتقلّد مناصب عليا.

إلا أنّ " ليلة القلعة غيرت حياة بدري صالح العلو تماما. صحيح أنه أبدى ندمه أمام الباشا، ولام نفسه على الضعف الذي بدر منه ، وتخاصم مع الزميل الذي أغراه وقدّم له الكأس، كما قرّر خلال نهارات كثيرة أن ينسى ، لكنّ طيف نجمة ظل يلاحقه .كانت نجمة تتخايل له في النّوم واليقظة ، وكانت تتجسّد ما أن يسمع صوت امرأة،ما أن تهفّ رائحة أنثى" (20)

وكان تعلّقه بنجمة الراقصة وهي واحدة من بنات الهوى التي تشرف عليهن روجينا في بيتها ، سببا في تدهور حالته النفسية وتغيّر سلوكه، وحين تمّ اكتشاف أمره من طرف الباشا قام بتحويله إلى كركوك ، وإن كان ذلك أقرب إلى التأديب منه إلى العقاب، فقد كان الباشا – من وراء ذلك – يريد تلقينه قواعد الإنضباط العسكرية، وما ينبغي أن يكون عليه من يتولى مسؤولية في السلطة " ولأني أثق بك وأريد أن ترتقي في السلك ،ولأني اعتبرك عيني وأذني ، فسوف أبعث بك إلى كركوك " (21) وهي طريقة الباشا في إبعاد من تسول له نفسه الإساءة إليه، أو إلى سمعة السراي ،تماما مثلما فعل مع عليوي الذي حوّله أيضا إلى الشمال قبل تحويل بدري.

وإن كان داود باشا لا يشعر بأي خطر من جهة بدري،على عكس ما كان يخشاه من سيد عليوي، هذا الأخير الذي كان يسعى بكل الوسائل للإطاحة به والتخلص منه.

بل لقد استغل عليوي عن طريق معاونيه فرصة وجود بدري في كركوك،لتحريضه ضد الوالي، واستدراجه إلى صفّه، و حين أبدى بدري رفضه كان مصيره أن اغتيل بوحشية، من طرف أعوان سيد عليوي.

فبدري كان ضحيّة الصراع بين داود وعليوي، ورغم أنّ الموت شكَّلَ " نهاية لحياة بدري القصيرة، لكنه كان البداية لأشياء كثيرة، بداية الحزن والتّغير والأسئلة ، بالنسبة لأشخاص عديدين، وفي أمكنة مختلفة " (22) وهو ما كان له أثره في تطوير الأحداث وتغيّر سلوك العديد من الشخصيات، وحتى الفضاءات،فقد حوّلت أمُّ قدوري غرفتها إلى قطعة من السواد، وانعزل والده في الطابق العلوي رافضا الحديث، ولم يعد أهل "مقهى الشط" يتحدّثون سوى عن حادثة اغتيال بدري.

- روجينا :

تجسّد دور المرأة البغيّ، التي لها القدرة على التأثير والإغراء الجنسي، ويمكن إدراجها ضمن نموذج الشخصية الجاذبة ، التي تتخذ الجاذبية الجنسية –عندها– لبوسات متغيرة وشديدة الإغراء (23) وذلك " من خلال بروز الصدر وعري الزندين والكتفين وتلك النظرات التي تحفل بالإغراء والخبرة وتقول الكثير وهي تلتفت إلى هذه الجهة أو تلك " (24)

من ثم يتحوّل الجسد الفاتن –الذي تملكه– إلى سلطة تغري رجال السراي النافذين ،فيستسلمون لغوايتها دون مقاومة ، فتسقط هيبة العسكري العنيف أمامها، ليتحوّل في أحضانها إلى طفل وديع إذ " الشيء الذي لا يمكن أن تنساه : أنّ الرجل الذي يخافه جميع الناس ،والذي يُخيف الحكومة أيضا، و إذا ذُكر اسمه تتداعى صور ووقائع شجاعته والأعمال التي قام بها. . ذاك الرجل الذي يخلق كل هذا الخوف، كان جبانا معها! كان يرتجف بين يديها، وفي أحيان كثيرة يبكي مثل طفل، ولا يكف عن البكاء ولا يهدأ إلا إذا وضعت رأسه في حجرها، قريبا من الصدر، وأخذت تغني له كما تغني الأم لطفلها الصغير لكي ينام!"(25)

ولكثرة علاقتها مع رجال السراي فإن " روجينا وأمثالها صدورهم قبور الأسرار، يعرفون كل شيء بالولاية، ويعرفون الناس على البطانة " (26) ولأنها تملك ذلك النفوذ

وتعرف الكثير من الأسرار يتم استدراجها من طرف القنصل البريطاني وخصوم داود باشا لاستغلال ما تملكه من معلومات وقدرة على الإغراء للإطاحة بالوالي، فتعمل إلى صفهم ويكلفها القنصل بنقل رسالة خطية، وأخرى شفوية إلى سيد عليوي ،مضمون كل منهما التآمر ضد داود باشا.

وحين يكتشف أمرها – وتحت طائلة التهديد – تُقرّ أمام هيئة المحكمة بتورّط عليوي بوصفها شاهدا على تآمره ضد الوالي، فيُحكم عليه بالإعدام.ويكون اعترافها سببا في تغيّر حالها وسلوكها ومسار حياتها كلّه ، فقد أصيبت بمرض شديد و " ما كادت تشفى حتى أبلغت «البنات » أنها تابت وسوف تتوقف عن هذه « المهنة» وخيّرت«البنات »:من ترغب منهن بالتوبة، وتريد أن تبقى معها، فإنها لا تمانع بذلك، ومن تختار شيئا آخر فالأمر يعود لها"(27)

- كلوديوس .ج. ريتش (شخصية الأجنبي)

تجسّد هذه الشخصية نموذج الأجنبي الوافد إلى بغداد، بصفته قنصلا عاما يمثل دولة عظمى كما جاء في الرواية " حين وصل ريتش إلى بغداد قنصلا عاما مفوضا لبريطانيا العظمى، كان في أوائل العشرينات من عمره " (28)

فمجيئه إلى بغداد مرتبط بوظيفة معينة ،هي خدمة مصالح دولته في المنطقة والتحدّث باسمها ، وهو رغم صغر سنه يتميّز بالفطنة والدهاء السياسيين " إذ ما كادت تمرّ شهورٌ على استلامه العمل حتى أصبحت القنصلية البريطانية ،أو الباليوز كما أطلق عليها الناس في بغداد ، تضاهي السراي ، بل وتتفوّق عليها في كل شيء :التأثير ،العلاقات، الأهمية، ومعرفة كل ما يدور في المدينة "(29)

ومن موقعه –ذاك– كقنصل لدولة عظمى يسعى إلى إخضاع الوالي الجديد داود باشا كما فعل مع غيره ،فلا يجد وسيلة الممكنة إلى تحقيق ذلك، لأن خصمه عنيد كما أقر هو نفسه بذلك " إذا كان الولاة السابقون قد أتاحوا لي الشعور بالتميّز والأهمية، فإنّ داود، العدو الوحيد الذي يجدر بي أن أنازله لأثبت لنفسي، قبل أن أثبت للآخرين ، كيف يمكن أن أحتمل الجروح والمعاناة ، وأن أحاول ... لست متأكدا من النّصر، لكنني متأكد

أنني لن أُسلِّم ، ولن أخضع لما يريد... وحالما أفلت من هذا الحصار ، سأعرف كيف أردّ عليه ، و ألقّنه درسا لن ينساه "(30)

فكانت المواجهة منذ البداية حادة ،وعنيفة تخللتها المكائد والتهديدات على مدار أجزاء الرواية الثلاثة ،وفي سبيل ذلك بذل كل جهده لتحقيق هدفه " ولما كان ريتش شديد الحرص على معرفة كل شيء، وعلى ألاّ تفوته الصغيرة والكبيرة ، فقد أوعز لرجاله أن يراقبوا ويتحروا أدق الأمور، لكن الأكثر أهمية أن يكون موجودا داخل السراي وأن يسمع ويعرف كل ما يدور هناك، خاصة وأنّ داود يختلف عن سعيد ...ويختلف عن غيره من الولاة " (31) إلا أنه ورغم دهائه و تحالفاته مع خصوم داود باشا، فإنّ المواجهة انتهت بانسحابه النهائي من العراق ، بعد أن نهب وزوجته ماري العديد من الآثار التي نقلها إلى بلده .

أما على صعيد آخر فهو يمثل نموذج الأجنبي المتعالي الذي لا يرى في من ينعتهم بالشرقيين سوى مظاهر التخلف و الإنغلاق و الفوضى، وفي ذلك لا يميز بين شرقي وآخر،فكل من ينتمي إلى الشرق هو عنده في حكم المتخلفين ، لذا فهو عندما يطلق أحكامه يشير بضمير الجمع " هؤلاء الشرقيون ملتبسون ومجبولون بالفوضى والتناقض ، لا تميّز فيهم الغني من الفقير، أيّهم الطيّب و أيّهم الماكر، ومن هو الفرح ومن هو الحزين . بل أكثر من ذلك تبدو عليهم الغبطة حين يوقعونك في خطأ التّمييز أو لم تسعفك فراستك بالمقدار الكافي لتحديد الصفات والمراتب " (32)

كما يرى باستهتار عبقريتهم متمثلة في التناحر والتقاتل بلا سبب ، ولا يجد تفسيرا لذلك " عبقرية الشرقيين تتجلى في حالة واحدة : يحتربون ويريقون الدماء بسخاء ، ثم يتصالحون ، ولا تعرف لماذا تحاربوا وكيف تصالحوا، وهذا ما يجعل اعتماد المنطق في تفسير هذه الحالة يقود تماما إلى الموقف الخاطئ " (33)

وهو يلخّص نظرته للشرق عامة بقوله: " أثناء زيارتي الأخيرة للمكلة المتحدة ، ولبعض الدول الأوروبية ، أدركت أنّ ما يفصل الشرق عن أوروبا ليس الجغرافيا أو الزمن بل ونوع العقلية أيضا ! " (34)

أما ماري زوجة القنصل وإن لم تكن شخصية محورية، فهي تمقت جوّ بغداد، ولا يشغل بالها سوى القطع الأثرية التي افتتنت بها ،والتي تمّ العثور عليها في رحلات الاستطلاع والتنقيب عن الآثار والكنوز في الشمال.

وما يصدق على ريتش في نظرته إلى الشرقيين يصدق على معاونيه من بنبي جنسه ،ومنهم شخصية (هايني) فقد كان لديه مشروع أن يكتب دراسة عن المجتمع العراقي،الذي بدا له غريبا في سلوكاته ومظاهر تكوينه وحياته.

ب – الشخصيات المُروّجة للأخبار والإشاعة:

وهي الشخصيات التي تتمحور معظمها في محلة الشيخ، تترّقب عن كثب ما يجري هنا وهناك من أحداث،وبالخصوص ما يجري في السراي و الباليوز ،متخذّة من المقهى– في معظم الأحيان– مكانا للتلاقي وترويج الأخبار والإشاعة .

إلا أنه وإن كانت جميع تلك الشخصيات مهووسة بنقل الأخبار وترويجها، فإنّ لكلّ منها مميزاتها وطرقها في تحري الخبر وإشاعته، لذا تتفاوت درجة مصداقية الخبر المنقول عند مرتدي المقهى من شخصية تنقله إلى أخرى.

• الحاج شبلي: الشخصية الأكثر حضورا في المقهى وهو من يدير الحوار ويوجّهه، بأسئلته وتعليقاته الكثيرة عن كل صغيرة وكبيرة تحْدُث، وهو نفسه من يتولى إعادة الهدوء حين تنشب فوضى ، بسبب اختلاف بين الأطراف المتحاورة المنفعلة في كثير من الأحيان.

ولعل قوّة تأثيره تكمن في أنه يبذل قصارى جهده في تحري الخبر حتى تكون له مصداقية " وسأل الحاج شبلي آخرين ،سأل الذين يتعاملون بالصوف والغنم،وسأل أحد دلالي البيوت، واثنين من الذين يتاجرون بالخيول ولهم علاقة قوافل،وسأل صباغا وصيادا وأحد صناع السروج،سألهم ما إذا كان عزرا ، أو أحد رجاله ،سأل أو استفسر عن أمر من الأمور التي لهم علاقة بها.... ولم يصل الحاج شبلي إلى نتيجة واضحة خلال ثلاثة أيام ، رغم مواظبته على ارتياد قهوة الشط ،وسؤاله الكثيرين " (35)

• الأسطة عواد : صاحب مقهى الشط ، وهو يحظى باحترام زبنائه الكثر، ولا يتوانى في أن يشاركهم في حواراتهم وانشغالاتهم، كما يأخذ بمشورتهم في ما يتعلق

بتسيير المقهى، وقد يكون ذلك سببا من أسباب إقبال عدد هائل من الزبائن على المقهى الذي يديره .

• الحاج علاوي :

شخصية متميزة في تقصي الأخبار وتحري تفاصيلها،متميزة في نقلها، لذلك " يقول بعض الناس إنّ الحاج علاوي ،مختار محلّة الشيخ صندل يعرف كل شيء ،ليس في المحلة وحدها ،بل وفي المحلات الأخرى، ويقولون إنه يعرف بغداد طابوقةً طابوقةً . له ذاكرة مثل حدّ السيف، وتشبه بير الغيبة ،حيث تنزل لتبقى إلى الأبد،وإذا دخلت إلى البير لا تخرج من هناك بسهولة " (36) وهذا ما يجعل الشخصيات الأخرى الفضولية –خاصة– تنجذب إليه علّها تَطّلِع على ما تحصل عليه من أخبار جديدة.

• الأسطة اسما عيل : المكنّى (أبو حقي) يمتاز بمرونة كبيرة وقدرة على ربط علاقات مع الآخرين ،وقد ساعدته مهنته كحلاق ،أن يربط العديد من العلاقات مع الزبائن ،الذين يحرص على كسب ثقتهم حتى لا يهجروه إلى حلاق آخر.

وهو مثله مثل الحاج علاوي أو يفوقه " « يعرف أيّة دجاجة باضت البيضة،وأي فلاح زرع القمحة،وأنّ كل الأخبار تأتي إليه مبلبلة، ساخنة » حتى ليحار الكثيرون كيف تصله ومتى "(37) وقد تكون تلك وسيلته لجدب الزبائن واستدراجهم ، عن طريق حواراته وإياهم ،لمعرفة مزيد من الأخبار والتفاصيل أو للحصول على خبر جديد.

وهو وإن كان " يحرص على نقل الأخبار إلى الذين يسألونه ،يحرص أكثر من ذلك على كتم مصادره،كما أن الأخبار على لسانه تكتسب ألقا ونضارة تفتقر إليها أخبار الحاج علاوي ،وإذا التبس خبر من الأخبار على الناس، ذهبوا إلى الأسطة إسماعيل،فعنده الخبر اليقين ، والمعرفة الأكيدة " (38)

• سيفو المحمود : سقاء المحلة ، يتميز بالبساطة وطيبة القلب،والعفوية في تصرفاته، وهو أيضا " يعرف أخبارا كثيرة ،لكنه يختلف عن الحاج علاوي وعن «أبو حقي » فلا يجيب إلا على الأسئلة التي توجه إليه، و أغلب الأحيان بإيجاز شديد، ويتجنب المبالغة والتعريض ،كما يمتنع عن ذكر الأخبار المسيئة ،وإذا اضطر، نتيجة

الإلحاح ، فلا يذكر الأسماء، إذ يعتبر ذلك رأس الفتنة " (39) تغير حاله كثيرا بعد اغتيال بدري لما كانت تجمعهما من صداقة .

• حسون : وهو كما تقدّمه شخصية الأسطة إسماعيل" حسون أبو خليل من محلة الشيخ صندل ، أعزب ، الشغل بياع شرّا " (40) يكاد لا يفارق مقهى الشط ،وهو مثله مثل شلة المقهى مهووس بنقل الأخبار وترويجها ، وله طريقة متميزة في الإخبار من خلال حركات وإيماءات يقوم بها " مثل كل ليلة ،حسون أحد نجوم قهوة الشط، يدخل مخطوفا: عينان مليئتان بالدهشة ، وهو يلتفت، بسرعة، في كل الاتجاهات، كأنه يبحث عن شخص أو عن شيء ضائع،شفتاه تتحركان بكلمات سريعة ،لكنها غامضة متداخلة ،حتى إذا تعالت الأصوات،ومن اتجاهات متعددة، تناديه وتطلب إليه أن يقدم شهادة عن ذلك اليوم " (41) فيسارع إلى إخبارهم ، فكأنّ حركاته تلك بمثابة وسيلة لتشويقهم ، ولفت انتباههم إلى ما يحمله إليهم من أخبار جديدة .

وقد شغف حبا بزوجة القنصل حين رآها لأول مرة في موكب رسمي للباليوز ، وكانت على ظهر حصان، وتوهّم –بسذاجة – أنها تبادله حبّا، وإنْ لم يتسنَ له أن يقابلها أو أن يتحدث إليها إطلاقا ، أما ما زاد من توهمه – الذي ظل يسيطر عليه إلى النهاية – هو ما كان يشيعه رواد المقهى في حضوره من إشاعات كاذبة مبالغ فيها،بأن زوجة القنصل لا تريد مغادرة بغداد إلى بلدها لأنها تعلقت به ، خاصة بعد أن تلقّى رسالة مجهولة غامضة المعنى ،مكتوبة باللغة الإنجليزية، وهو ما سبب له الكثير من المعاناة النفسية وسخرية الآخرين منه،وهم يراقبون تصرفاته الساذجة.

•المُلا حمادي : إمام مسجد محلّة الشيخ صندل ، وهو لا يبدو في وضع شيخ له وقار أو هيبة، لما يصدر عنه من تصرفات ، وافتقاره إلى مؤهلات تجعله كذلك،إذ كثيرا ما يُعاب عليه تهاونه،وعدم التزامه بأوقات الصلاة ،وعجزه عن الإجابة على الأسئلة التي تطرح عليه بشأن يتعلق بأمور الدين ، وقد يكون السؤال الموجهة إليه– عادة– بغرض المكيدة ، وتوريطه بما لا يقدر على الإجابة عنه، فيضطرب ويرتبك.

ورغم أنّ هذه الشخصية ليست ممن يداومون على ارتياد المقهى ، إلا أنها حاضرة في عالم شخصيات محلة الشيخ صندل ، بحكم أنّ الملا حمادي هو إمام

المسجد بالمحلة، ومن واجباته تقديم الوعظ وإرشاد الآخرين وتوجيههم ، إلا أنه كما – يبدو – لا يملك الكفاءة اللازمة للإقناع بالدليل والحجة، بالإضافة إلى ما يُأخذ عليه من وتصرفات و سلوكات، فهو كما يصفه خصمه سيفو " مثل النملة يجمع ومثل الذيب ينهش من هنا..من هنا، وما خلى وما بقى " (42)

ج – الشخصيات العابرة :

وهي كثيرة، ترِد في سياق سرد حدث مُعيّن، ثم تختفي بانقضاء سرد الحدث العارض، خاصة تلك التي ترتبط بما يستدعيه التذكر العابر، كاستحضار داود لشخصيات هي جزء من ماضيه البعيد ،والتي فقد الاتصال بها، وبخاصة أمه " ثم تتعاقب بعد ذلك الوجوه: جورجي عمانوئيل شفاي ، أبوه ، و شيو أخوه، و ديمتري ، أخوه الأصغر، و تترآى له صورة الكلب الذي كان عندهم هناك ، ومع أنه يحبهم كثيرا ويحب أمه أكثر من أيّ إنسان آخر، إلا أن ذلك جزء من الماضي ،هذا الجزء الذي يجب نسيانه، لأنه في النتيجة ، لا يعني له الكثير الآن " (43) وهو حضور عرضي لا يتجاوز حدود المقطع الذي تمت الإشارة فيه إلى تلك الشخصيات بأسمائها.

واستحضار مثل هذه الشخصيات –هنا – له أهميته في إضاءة بعض الجوانب الغامضة من سيرة داود، إذ عن طريق التذكر يتم الكشف عن طفولته، وعن موطنه الأصلي وكذلك إضافة بعض التفاصيل.

فلا يتفاجأ القارئ – بعد ذلك– حين يطلعه الراوي عن رغبة داود في رؤية أمه من جديد ،كونها بعيدة جدا عنه ، إذ يكون قد عرف سرّ ذلك الحنين ،الذي يتسلط عليه بين الحين والآخر.

د– الشخصية الغائبة / الحاضرة:

تتكرر أسماء بعض الشخصيات في "أرض السواد " دون أن يكون لها حضور فعلي في مجرى الأحداث ،كشخصية نابليون التي تتكرر مرات عديدة في الثلاثية ،على خلاف أسماء الشخصيات العابرة التي قد لا يتكرر ذكرها ، غير أن الغياب الفعلي لهذه الشخصيات يوازيه حضور من نوع آخر .إذ هي حاضرة كهاجس في مخيلة بعض الشخصيات الأخرى ، التي تستحضرها في وضع من الأوضاع.

ولعل شخصية " نابليون " هي الهاجس الذي يؤرق ريتش القنصل البريطاني أكثر من غيره، فهو يردد اسم هذه الشخصية في مختلف المناسبات ، مؤكدا على انتهاء شأن صاحبها بشيء من الاستهتار والاستخفاف " لقد أزعج هذا النابليون أوروبا والعالم كلّه ، ولو تُرِك وشأنه لما وَجد العالم راحة أو سلاما، لذلك كان تأديبه ضروريا ،وهذا ما تولّته الإمبراطورية البريطانية العظمى، وانتهى الأمر" (44)

وليس ذلك إلا تأكيدا على أنّ نابليون خصمٌ لدود للقنصل أو بالأحرى لدولته العظمى، وقد يثير تأكيد ريتش على انتهاء شأن خصمه بعض الشكوك من ناحية أخرى " إذ رغم أنّ صورة نابليون كانت مهتزة ، غائمة،في أذهان أغلب الذين يسمعون كلام القنصل،فإنّ المشاعر تجاهه كانت تتراوح بين المحبة والخوف، فهذا الإمبراطور الذي دقَّ أبواب الشرق، وأسمع صوتَه كل العالم ، لا يُعقل أن يذهب هكذا أو بهذه السرعة. ثم ماذا لو أنّ غيابه مؤقت ؟ "(45)

وهذه الشخصية الحاضرة/ الغائبة ليست هاجس ريتش فحسب ، بل " حتىّ باشوات بغداد كانوا يحسبون ألف حساب لهذا الثائر المجنون ، كانوا يتحدثون عنه بإعجاب لا يخفونه، ويؤكدون أنّ سفيره يلتقي بالسلطان وقت ما يشاء ، في الليل والنهار ، والسلطان يتبادل والإمبراطور الهدايا والإعجاب"(46) ولعل ذلك ما كان يزيد من تخوّف ريتش إزاء خصمه.

ولحضور هذه الشخصية في فضاء الشخصيات–كهاجس – أهميتها،إذ تترك انطباعا لدى القارئ بأنها تمثل هاجسا لدى الشخصيات على مستويات عدة ، يتجاوز الأمر أن يكون هاجسا يؤرّق ريتش ، بل سيعيد القارئ بناء توقعاته حين يفاجئه الراوي أنّ " سليمان ما كان يُقدَّر له أن يصبح باشا بغداد لولا نابليون وسفيره في اسطنبول " (47)

بالإضافة إلى هذه الشخصية التي تقلق ريتش ، ثمة شخصيات أخرى تشكل هاجسا لدى داود ،هي تلك الشخصيات المُلاحقة من طرفه، دون أن يتمكن من إلقاء القبض عليها ،مثل شخصية قاسم الشاوي ، فهي تشكل خطرا يُتوقّع حدُوثه في أيّة لحظة.

ولأنّ هذه الشخصية حاضرة /غائبة فإنها تظل محل مطاردة من طرف داود، وكلّ رجائه إلقاء القبض عليها ، بل هو مصمم على تحقيق ذلك " إذ مهما طال الوقت لا بدّ أن يقبض عليه . يمكن أن يخصّص عددا إضافيا للبحث عنه ، وإذا فشل الرجال في الوصول إليه يمكن أن يُستعان بالنساء ، خاصة وقد بدأ يظهر طرف خيط عن طريق إحدى المنجمات، وكانت تتردد على قسم الحريم في السراي ، إذ وعدت أن تأتي بالخبر اليقين ،بعد إشارة أو اثنتين ! " (48)

وإذا كان يُتعذر حصر كل الشخصيات في هذا الموضع، فإنه يمكن القول أنّ لكل شخصية في هذه الرواية وظيفتها السردية المحدّدة ،سواء أكانت تلك الشخصية شخصية فاعلة مكثفة الحضور، أو شخصية عابرة ، أو شخصية حاضرة/غائبة،فكل هذه الشخصيات لها وضعياتها وظائفها التي تساهم في تطوير الأحداث و توجيه مسارها.

هوامش:

1- حسن بحرواي : بنية الشّكل الروائي (الفضاء- الزّمن -الشّخصية) المركز الثقافي العربي،الدار البيضاء ،المغرب،ط1، 1990،ص: 279

2- عبد الرحمن منيف: أرض السواد (1) المركز الثقافي العربي للنشر والتوزيع ، الدار البيضاء،المغرب، ط 3 ، 2002 ، ص : 231

3- المصدر نفسه،ص: 308

4- عبد الرحمن منيف : أرض السواد (2) المركز الثقافي العربي للنشر والتوزيع ، الدار البيضاء ، المغرب، ط 3 ، 2002 ، ص :403

5-عبد الرحمن منيف: أرض السواد (1) ص : 184

6- المصدر نفسه،ص : 265

7-المصدر نفسه،ص :110

8-المصدر نفسه،ص: 266

9-المصدر نفسه،ص: 259

10-المصدر نفسه،ص:246

11-المصدر نفسه،ص:246

12-المصدر نفسه،ص:280

13-المصدر نفسه،ص:295

14- المصدر نفسه،ص:241

15- عبد الرحمن منيف : أرض السواد (2) ص: 404

16 -المصدر نفسه،ص:365

17-المصدر نفسه،ص : 365

18-المصدر نفسه،ص: 485

19-المصدر نفسه،ص: 538

20-عبد الرحمن منيف : أرض السواد (1) ص: 403

21-المصدر نفسه،ص:497

22- عبد الرحمن منيف : أرض السواد (2) ص: 306

23- حسن بحراوي : بنية الشكل الروائي (الفضاء-الزمن - الشخصية) ص:277

24-عبد الرحمن منيف: أرض السواد (1) ص :216

25- المصدر نفسه،ص: 222/ 223

26-المصدر نفسه،ص:205

27- عبد الرحمن منيف : أرض السواد (3) المركز الثقافي العربي للنشر والتوزيع ، الدار البيضاء ، المغرب، ط 3 ، 2002، ص :20

28- عبد الرحمن منيف : أرض السواد (1) ص :86

29- عبد الرحمن منيف : أرض السواد (1) ص :86

30- عبد الرحمن منيف : أرض السواد (3) ص :300 /301

31- عبد الرحمن منيف : أرض السواد (1) ص : 258 / 259

32- المصدر نفسه، ص : 260

33- عبد الرحمن منيف : أرض السواد (3) ص: 181 /182

34- عبد الرحمن منيف : أرض السواد (1) ص : 102

35-المصدر نفسه ،ص: 515

36-المصدر نفسه ،ص : 418

37-المصدر نفسه ،ص : 418

38-المصدر نفسه ، ص : 418

39-المصدر نفسه ، ص :418

40-عبد الرحمن منيف : أرض السواد (2) ص :119

41-عبد الرحمن منيف : أرض السواد (1) ص : 510

42-عبد الرحمن منيف : أرض السواد (2) ص :24/23

43-عبد الرحمن منيف: أرض السواد (1) ص : 302

44-المصدر نفسه،ص : 250

45-المصدر نفسه،ص : 250

46-المصدر نفسه،ص : 254

47-المصدر نفسه،ص : 254

48-المصدر نفسه،ص : 114